ملاحظات متواضعة على مشروع

ترجمة معاني القرآن الكريم

بقلم المستشرق المجري

الدكتور عبد الكريم جرمانوس

طالعت والغبطة تفعم قلبي المرسوم الصادر بترجمة معاني القرآن الكريم استناداً إلى الفتوى الشرعية المقدمة من هيئة كبار العلماء، إذ يبدأ العمل بمقتضاها قريباً في هذا المشروع الخطير الذي يعد أول حادث له قيمته في تاريخ الاسلام

لقد ترجم مسيحيو القرون الوسطى كتاب الله الكريم إلى عدة لغات أوربية. وكانت أول ترجمة، على ما أعرف، هي تلك التي قام بها كلونى الى اللغة اللاتينية في القرن الثاني عشر. ثم أقبلت طائفة من القسس والرهبان على نقله الى بقية اللغات الحية، حتى أن بعض الأمم الصغيرة ساهمت في هذا العمل، ولا تزال تفتخر بوجود نسخ من هذه التراجم البدائية في متاحفها. وتوجد في اللغات الألمانية والانجليزية والفرنسية والايطالية عشرات التراجم، القديمة والحديثة، بحيث يمكن للمرء أن يختار منها ما يوافقه. على أن معظم هذه التراجم تكاد تكون حرفية لآيات الذكر الحكيم، برغم حرص القائمين بترجمتها على وضعها في قالب صحيح يتفق والمعنى الذي أنزلت به، لأنه من المعلوم أن فصاحة القرآن وبلاغته أمران لا سبيل إلى انكارهما. وهذا لعمري مما حارت فيه عقول العلماء والفلاسفة واللغويين. ولو سلمنا جدلاً بأن معظم هذه التراجم خال من الاخطاء — وهذا ما لا يمكن الجزم بصحته — فالتفسير لا يكون مؤدياً تماماً لنصوص الذكر الحكيم. ومن المتيسر أن يصل المترجم الى الأصل الذي يخلع على كتاب الله جلالة وروعة. فمعجزة القرآن في أسلوبه وبلاغته، مما لا يجعل الأجانب يفقهون معناه أو يشعرون بلذة عند تلاوته، نظراً لأن بعض المترجمين أطلقوا لأنفسهم العنان في ترجمته

ويلوح لي أن هذه التراجم أشبه ما تكون بالصور الفاتمة التي تمثل الطبيعة الحية، فالنشوة الروحية العميقة التي يحس بها المسلم لدى تلاوة القرآن، يكاد أمرها يكون معدوما لدى طائفة من الأفرنج وهم يطالعونه في لغاتهم. فمن هذه الناحية نرى أن القرآن الكريم غير قابل للترجمة، ولا يمكن أن يصل كاتب مهما بلغت عبقريته الى مثل هذا السمو. والتاريخ على ما فيه من الحوادث الجسام والعظات البالغات، كذلك الفن في أنبل وأسمى معانيه، لا يمكن مقارنة أحدها بآية واحدة من آيات الكتاب المنزل الحكيم

وكيف لا يكون الأمر كذلك وهو كلام الله القديم الأزلي؛ وهو معجزة ليس من السهل تفسيرها في ضوء الحوادث، أو شرحها بمنطق التدليل، والمفروض أن الانسان يؤمن به حسب نزوله

إن فلسفة التاريخ بمناهجها الصحيحة، حاولت عبثا أن تحلل تفاصيله وتواريخه وترده إلى أصوله، ولكنها برغم الجهود الجاهدة التي بذلتها أجبرت على الخضوع لأحكامه، ورضيت من الغنيمة بالاياب، وأيقنت أنه أمر ليس في طاقة البشر أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا. ففي وسط ظلام الأنسانية الحالك، انبثق ذلك القبس الالهي، وأضاء الكون ليمهد للانسانية طريق الهداية والرشد. مما أدى الى وضع الأصول الاجتماعية والقوانين والشرائع وتحديد علاقة الناس بعضهم ببعض. بل أصبح القرآن قاعدة موطدة لثقافات علمية واسعة النطاق، وحلقة كونية لم يظهر لها نظير في كل أحقاب التاريخ

ولقد كان طبيعياً أن يكون القرآن باعثاً على خلق الوحدة العربية والاخوة الاسلامية، سواء في اللغة أو في الفكر والعاطفة، وبتأثيره امتدت حضارة الاسلام من قلب الجزيرة العربية إلى أطراف العالم؛ وكان امتداد هذه الحضارة مما لم تشهده مدنية من المدنيات الانسانية العظيمة الأخرى. فاقامة الصلاة يرن صداها اليوم من مراكش إلى اليابان حول قارات ثلاث. كذلك كان القرآن سبباً في احكام رابطة الوحدة بين ثلثمائة مليون مسلم، سلاحهم التقوى ومخافة الله، ودينهم مستمد من القانون السماوي المقدس الذي رفعهم إلى السمو الروحي. ولقد طغى القرآن على الفوارق المادية التي بين المسلمين، حتى أصبحوا بفضله إخواناً، وأزال البغضاء والنقائص من نفوسهم،

ونفى عن قلوبهم الأدران والعوامل الشعوبية واللغوية والجغرافية حتى صاروا كالبنيان المرصوص يشد بعضهم بعضاً

* * *

إن تفشى النزعة المادية كان من أقوى البواعث لزعزعة العقائد الدينية فى عالم الغرب . وهذه الظاهرة بدت ماثلة قوية الأثر فى القارة الأوربية عند ما حاولت أن تشيد لها صرحا فوق أنقاض الدولة الرومانية ، هنالك بدأت حركة الاصلاح التى قام بها مارتن لوثر ، وكان من أقوى عواملها ترجمة الأنجيل ، فكانت ترجمة هذا الكتاب المقدس سبباً فى تقدم الحضارة الجرمانية ، وسبيلاً الى إدماج لهجات ولغات متباينة بعضها فى بعض ، حتى غدت منها لغة واحدة هى الآن لسان للأدب الألمانى الكبير

من ذلك ترى أن ترجمة الانجيل من اللاتينية أحدثت فى الحضارة الأوربية بعض الأثر الذى أحدثه القرآن الكريم فى تكوين حضارة اسلامية راقية مؤسسة على قواعد ونظم ثابتة . أضف الى ذلك أن اختراع الطباعة جاء فى نفس الوقت الذى سارعت فيه الأمم والشعوب الجرمانية لتلم شعثها . فاخضعت الطباعة للغة والفكر والدين ، وازدهر الأدب الجرمانى وانتشرت ضروب الثقافات ، وبفضل ترجمة الانجيل اندثرت اللغات واللهجات ، ومحيت الفوارق السياسية التى كانت إحدى نتائج الجهل المؤدى الى العبودية

فى ذلك الوقت كانت طائفة صغيرة من العلماء فى الشرق الاسلامى ، قد احتكرت علوم القرآن وتفسيره ، وأصبحت اللغة الفصحى على وشك التدهور والانهيار ، وتفشت الأمية والجهل الى حد مخيف ، وأصبح المسلمون الذين كانوا قادة الأمم فى العلوم والآداب فى حالة تأخر وانحطاط بالنسبة لأسلافهم . أما الكتاب الكريم ، ينبوع الحضارة الاسلامية الزاهرة ، فكان غير مفهوم لأكثر من الناس

فى هذه العصور المظلمة كانت طائفة العلماء فى عزلة تامة عن الشعب ، يحتكرون القرآن فى صدورهم ، فانتشرت الجهالة وعمت الفوضى ؛ على أنه من توفيق الله ، كان لا يزال ألوف من المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها يحفظون القرآن وإن لم يفقهوا معانيه . فالاسلام فى حد ذاته هو التشبع بالمبادىء الروحية السامية المركزة على طهارة النفس ونقاوتها مما يشوبها . فهل يمكننا فى هذه الحالة أن نعترف بأن الالهام السماوى ، مهما بلغ من التقديس ، يؤثر فى نفوس من لا يفقهون معناه ؟ إن الاسلام ليس سحراً ولا طلسما ، ولكنه دين الحق والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ؛ وإذا اعتقدنا بأنه صالح لكل زمان ومكان ، فيجب علينا إذن أن نعمل جهدنا لشرحه وترجمة معناه وجعله فى أيدى ألوف الناس الذين يتحرقون شوقاً للدخول فيه أفواجاً وأفواجاً

نحن لا نحارب فى هذا العصر مثلا بنفس الأسلحة التى كان آباؤنا يلجأون إليها للدفاع عن أنفسهم — من أقواس ونبال ورماح — بل نقاتل بالدبابات والطيارات وسائر الآلات الحديثة ، كذلك يجب علينا فى هذا العصر ألا ندخر وسعاً فى الالتجاء إلى كافة الوسائل الأدبية والروحية لاظهار فضائل الدين الحنيف والتبشير به فى أرجاء الأرض

لقد كان القرآن محصوراً فى بدايته فى بضع نسخ خطية ، فلما انتشرت المطابع الحجرية استخدمت لنشره وجعله فى متناول أيدى ألوف المسلمين . كذلك كان الأمر فى المطابع الرحوية والحديثة ؛ وهو الآن يذاع فى الراديو ويفسر على موجات الأثير . أما الذين يحفظون كتاب الله ولا يفقهون معناه ، فهؤلاء شأنهم شأن غريق يلتمس النجاة ، محاولاً التعلق بحزمة من القش . وليس فى وسعهم أن يفقهوا الشطر الروحانى منه الذى يؤهلنا للرشد والتقدم والتسلح بأسلحة من العلم واستقامة الفهم

إن العالم الاسلامى الذى يقف اليوم فى مفترق الطرق ، فيه أكثر من ثمانين فى المائة يحفظون القرآن عن ظهر قلب ولا يفقهون معناه ، فالى هؤلاء الملايين نوجه الأسئلة الآتية :

١ — هل تميلون إلى حفظ القرآن فى صورته الحاضرة دون أن تفقهوا معناه فتظل نفوسكم ظامئة إلى هذا الشراب الروحى ؟

٢ — هل تريدون أن يكون وقفاً على طائفة من العلماء يحتكرون معانيه فى صدورهم مع أن الله عز وجل أرسله الى كافة البشر ؟

٣ — ماذا يكون لو أن الكتاب الكريم نقل الى لغاتكم حتى ترتوى منه النفوس الظامئة التى تتلهف عليه كينبوع تفجر من الألوهية العظيمة ؟

(البقية فى العدد القادم)

(بروابت) عبد الكريم جرمانوس